مراجعات

اصول الهوية الفلسطينية

Muslih, Muhammad Y.; *The Origins of Palestinian Nationalism*, New York: Columbia University Press, 1988, 277 p.

كثيراً ما تُهاجَم الدراسات التاريخية لتخلّف مناهجها في دراسة الظواهر السياسية والايديولوجية والاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بتاريخ فلسطين الحديث. فهذا التاريخ، بالنسبة الى الجيل القديم من الدراسات، لم يكن سوى سلسلة من الاحداث السياسية التي يمكن ان تشرح ضمن منطق محض سببي، امّا بالاشارة الى التراث والدين، وامّا الى سيرورة التدخّل الاجنبي، من دون تلمّس فعلي، وحقيقي، للجذور المغروسة في تربة هذه الاحداث. من هنا، ظلّت الدراسات السوسيولوجية، المعنيّة بتاريخ فلسطين الحديث، معدودة من جانب، ومحدودة في طموحها، من جانب آخر، اضافة الى حداثة عهدها.

وفي سياق التطرّق الى الدراسات السوسيولوجية لهذا التاريخ، فان المرء يمكن ان يعثر، في هذا الشأن، على مراجع يتيمة، لا تتعدى، على الارجح، اصابع اليد الواحدة؛ وبالتالي، فانه لا يجد بدّاً من الترحيب الحار بصدور كتاب شامل عن تلك الحقبة، بقلم مؤرخ فلسطيني، متميّز، بحيث غدا عمله ضمن ما يطلق عليه، عادة، «بالمصوَّبات القيمية الناجعة»، وجعل منه مرجعاً من الدرجة الممتازة لأي باحث في موضوع نشوء الهوية الوطنية الفلسطينية، واستطراداً الكيانية الفلسطينية؛ ومصدراً، لا غنى عنه، لمن يريد فهم سيرورة هذا النشوء. وإنْ كان لنا من ملاحظات، في سياق هذه المراجعة، فهي لن تؤثر، بأي حال من الاحوال، في هذا التقويم الاولي للكتاب.

يضمّ كتاب محمد مصلح «اصول الوطنية الفلسطينية» مدخلاً وتسعة فصول، اعتمد فيها المؤلف على طائفة واسعة، ووافرة، ومتنوّعة، من المصادر التي ضمّت مواد غير منشورة (كالاوراق الخاصة، والوثائق الرسمية الحكومية، والرسائل المنسوخة)؛ كما عمل، بشكل متوسّع ونقدي، في آن، على الوثائق الموجودة في الارشيف الاسرائيلي، وارشيف المركز الصهيوني؛ ونقّب، بجهد، في ارشيف مركز الأبحاث الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وارشيف مؤسسة الدراسات الفلسطينية. وهو لم يهمل، طبعاً، الكتابات المنشورة على صعيد واسع. فقد عزز مُؤلّفه بعدد ضخم من الكتب والمقالات، باللغتين العربية والانكليزية، يزيد على المئتي مرجع، الّا انه ركّز عمله، في هذا المجال، على ما يبدو، على الشهادات التي استخلصها من مقابلات عديدة، اجراها مع عدد من الفاعلين الفلسطينيين الاحياء، الذين عاصروا انهيار حلم الاستقلال العام ١٩٢٠.

وككل الدراسات التاريخية الهامّة، يشكّل كتاب مصلح، مورداً خصباً لباحثي اليوم، اقتصاداً وسياسة واجتماعاً. غير اننا نرى له فضلاً اساسياً في مجالين محدّدين، هما السوسيولوجيا السياسية وتاريخ العلاقات الدولية.

في المجال الاول، يشكّل الكتاب مونوغرافيا موثّقة حول موضوع لم يزل رئيس الاهمية، وهو نشأة الهوية الوطنية الفلسطينية. هذه المسألة شديدة الحضور في ذهن من يريد ان يدرس العلاقة التي كانت قائمة في فلسطين بين استيعاب البنى السياسية الحديثة والتجمّعات ذات الاصول التقليدية.

كيف تبلورت الهوية الوطنية الفلسطينية؟ قرّر مصلح، في مقدمة الكتاب، ان تبلور هذه الهوية لم يكن بالامر المفاجىء، على كل حال، وأنما سبقته، وتداخلت فيه، مراحل ثلاث مهّدت لترسيخه، هي على التوالي: